

النوع الثامن والخمسون

في بدائع القرآن

أفرده بالتصنيف ابنُ أبي الإصبع^(١)، فأورد فيه نحو مئة نوع، وهي: المجاز، والاستعارة، والتشبيه، والكناية، والإرداف، والتمثيل، والإيجاز، والاتساع، والإشارة، والمساواة، والبسط، والإيغال، والتنميم، والتكميل والاحتراس، والاستقصاء، والتذليل، والزيادة، والترديد، والتكرار، والتفسير، والإيضاح، ونفي الشيء بإيجابه، والمذهب الكلامي، والقول بالموجب، والمناقضة، والانتقال، والإسجال، والتسليم، والتمكين، والتوشيح، والتسهم، وردّ العُجْز على الصدر، وتشابه الأطراف، ولزوم ما لا يلزم، والتخيير، والتسجيع، والتسريع، والإيهام: وهو التورية، والاستخدام، والالتفات، والاطراد، والانسجام، والإدماج، والافتنان، والافتدال، وائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف اللفظ مع المعنى، والاستدراك، والاستثناء، والاقتصاص، والإبدال، وتأكيّد المدح بما يشبه الذم، والتفويت، والتغاير، والتقسيم، والتذبيح، والتنكيت، والتجريد، والتعديد، والترتيب، والترقي، والتدلي، والتضمين، والجناس، والجمع والتفريق، والجمع والتقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، وجمع المؤنث والمختلف، وحسن النسق، وعتاب المرء نفسه، والعكس، والعنوان، والفرائد، والقسم، واللفظ والنشر، والمشاكله، والمزاوجة، والمبالغة، والمطابقة، والمقابلة، والموازبة، والمراجعة، والنزاهة، والإبداع، والمقارنة، وحسن الابتداء، وحسن الختام، وحسن التخلُّص، والاستطراد.

فأمّا المجاز وما بعده إلى الإيضاح: فقد تقدّم بعضها في أنواع مُفردة، وبعضها في نوع الإيجاز والإطناب مع أنواع أُخر، كالتعريض والاحتباك، والاكتفاء، والطرد، والعكس.

وأما نفي الشيء بإيجابه: فقد تقدّم في النوع الذي قبل هذا.

وأما المذهب الكلامي والخمسة بعده، فستأتي في نوع الجدل مع أنواع أُخر مزيدة.

وأما التمكن والثمانية بعده: فستأتي في أنواع الفواصل.

وأما حسن التخلُّص والاستطراد: فسيأتيان في نوع المناسبات.

وأما حسن الابتداء وبراعة الختام: فسيأتيان في نوعي الفواتح والخواتم.

وها أنا أورد الباقي مع زوائد ونفائس لا توجد مجموعة في غير هذا الكتاب.

الإيهام، ويدعى التورية: أن يُذكر لفظ له معنيان - إمّا بالاشتراك، أو التواطؤ، أو الحقيقة والمجاز - أحدهما قريب والآخر بعيد، ويقصد البعيد، ويؤرَى عنه بالقرب، فيتوهّمه السامع من أول وهلة.

(١) هو كتاب «بدیع القرآن»، وقد قام بتحقيقه الأستاذ حفني محمد شرف. ط: دار نهضة مصر.

قال الزمخشري: لا ترى باباً في البيان أدقّ ولا ألطف من التورية، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله ورسوله. قال: ومن أمثلتها: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فإنّ الاستواء على معنيين: الاستقرار في المكان، وهو المعنى القريب المورى به، الذي هو غير مقصود، لتزيهه تعالى عنه. والثاني: الاستيلاء والمُلْكُ، وهو المعنى البعيد المقصود، الذي ورى عنه بالقرب المذكور. انتهى.

وهذه التورية تسمى مجردة؛ لأنها لم يذكر فيها شيء من لوازم المورى به ولا المورى عنه. ومنها: ما تسمى مرشحة، وهي التي ذكر فيها شيء من لوازم هذا أو هذا. كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فإنّه يحتمل الجارحة وهو المورى به، وقد ذكر من لوازمه على جهة الترشيح البنيان، ويحتمل القوّة والقُدرة، وهو البعيد المقصود.

قال ابن أبي الإصبع في كتابه «الإعجاز»^(١): ومنها: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]. فالضلال يحتمل: الحبّ، وضدّ الهدى. فاستعمل أولاد يعقوب ضدّ الهدى توريةً عن الحبّ.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢]. على تفسيره بالدُّرع؛ فإنّ البدن يطلق عليه وعلى الجسد، والمراد البعيد وهو الجسد.

قال: ومن ذلك قوله بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى حيث قال: ﴿وَلَيْنِ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٥]. ولما كان الخطاب لموسى من الجانب الغربي وتوجّهت إليه اليهود، وتوجّهت النصارى إلى المشرق، كانت قبلة الإسلام وسطاً بين القبلتين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: خياراً، وظاهر اللفظ يوهم التوسط، مع ما يعضده من توسط قبلة المسلمين، صدق على لفظة (وسط) هاهنا أن يسمّى تعالى به لاحتمالها المعنيين. ولما كان المراد بعدهما وهو الخيار، صلحت أن تكون من أمثلة التورية.

قلت: وهي مرشحة بلازم المورى عنه، وهو قوله: ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. فإنّه من لوازم كونهم خياراً، أي: عدولاً، والإتيان قبلها من قسم المجردة. ومن ذلك قوله: ﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]؛ فإنّ النجم يطلق على الكوكب، ويرشحه له ذكر الشمس والقمر. وعلى ما لا ساق له من النبات، وهو المعنى البعيد له، وهو المقصود في الآية.

ونقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر: أن من التورية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]. فإنّ ﴿كَفَّاهُ﴾ بمعنى (مانع)، أي: تكفّهم عن الكفر والمعصية، والهاء للمبالغة، وهذا معنى بعيد. والمعنى القريب المتبادر أن المراد جامعة بمعنى (جميعاً). لكن منع من

(١) «بديع القرآن» ص ١٠٢ باب التورية.

حملة على ذلك أن التأكيد يتراخى عن المؤكّد، فكما لا تقول: رأيتُ جميعاً الناسَ، لا تقول رأيت كافةً الناسَ.

الاستخدام: هو والتورية أشرف أنواع البدیع، وهما سيّان، بل فضّله بعضهم عليها. ولهم فيه عبارتان. إحداهما: أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً به أحد معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. وهذه طريقة السكاكّي وأتباعه.

والأخرى: أن يؤتى بلفظ مشترك، ثم بلفظين، يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخر الآخر. وهذه طريقة بَدْر الدين بن جماعة في «المضباح». ومشى عليها ابن أبي الإصبع^(١)، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] الآية، فلفظ ﴿كِتَابٌ﴾ يحتمل الأمد المحتوم، والكتاب المكتوب، فلفظ ﴿أَجَلٍ﴾ يخدم المعنى الأول، و﴿يَمْحُوا﴾ يخدم الثاني.

ومثّل غيره بقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى...﴾ [الآية [النساء: ٤٣]]. فالصلاة تحتمل أن يراد بها فعلها وموضعها، وقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] يخدم الأول، و﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء: ٤٣] يخدم الثاني.

قيل: ولم يقع في القرآن على طريقة السكاكّي.

قلت: وقد استخرجتُ بفكري آياتٍ على طريقته، منها قوله تعالى: ﴿أَنْ أَمُرُ اللَّهَ﴾ [النحل: ١]، فأمر الله يراد به: قيام الساعة، والعذاب، وبعثة النبي ﷺ. وقد أريد بلفظه الأخير، كما أخرج ابن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَمُرُ اللَّهَ﴾. قال: محمداً، وأعيد الضمير عليه في: ﴿سَتَعْلَمُونَهُ﴾ [النحل: ١]، مراداً به قيام الساعة والعذاب.

ومنها - وهي أظهرها - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. فإن المراد به آدم، ثم أعاد عليه الضمير مراداً به ولده فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]. ومنها: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْمَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٢]، أي: أشياءٍ آخر، لأن الأولين لم يسألوا عن الأشياء التي سألت عنها الصحابة، فنهوا عن سؤالها.

الالتفات: نقلُ الكلام من أسلوب إلى آخر، أعني من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها، بعد التعبير بالأول. وهذا هو المشهور. وقال السكاكّي: إمّا ذلك، أو التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره.

وله فوائد:

منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الصّجر والمّلال، لما جُبلت عليه النفوس من حبّ التنقّلات، والسامة من الاستمرار على منوالٍ واحد، وهذه فائده العامة.

(١) انظر «بديع القرآن» ص ١٠٢ باب التورية.

ويختص كل موضع بنكتٍ ولطائف باختلاف محله، كما سنبينه.

مثاله: من التكلم إلى الخطاب - ووجهه: حث السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه، وأعطاه فضل عناية تخصيص بالواجهة - قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ إِلَهِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]. والأصل (وإليه أُرْجِع)، فالتفت من التكلم إلى الخطاب. ونكتته: أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه وهو يريد نصح قومه، تلطفاً وإعلاماً أنه يريد لهم ما يريد لنفسه، ثم التفت إليهم؛ لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله تعالى.

كذا جعلوا هذه الآية من الالتفات، وفيه نظر؛ لأنه إنما يكون منه إذا قصد الإخبار عن نفسه في كلتا الجملتين، وهنا ليس كذلك، لجواز أن يريد بقوله: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ المخاطبين لا نفسه.

وأجيب: بأنه لو كان المراد ذلك لما صحَّ الاستفهام الإنكاري، لأن رجوع العبد إلى مولاه ليس بمستلزم أن يعيده غير ذلك الراجع. فالمعنى: كيف لا أعبد من إليه رجوعي، وإنما عدل عن (وإليه أُرْجِع) إلى ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأنه داخل فيهم، ومع ذلك أفاد فائدة حسنة، وهي: تنبيههم على أنه مثلهم في وجوب عبادة من إليه الرجوع.

ومن أمثله أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَقْبِمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧١، ٧٢].

ومثاله من التكلم إلى الغيبة - ووجهه: أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده من السامع؛ حَضَرَ أو غاب، وأنه ليس في كلامه ممن يتلون ويتوجه، ويبيدي في الغيبة خلاف ما بيديه في الحضور - قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴿٢﴾ [الفتح: ١، ٢]. والأصل (لنغفر لك). ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴿٢﴾ [الكوثر: ١، ٢]. والأصل (لنا). ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ [الدخان: ٥، ٦]. والأصل (منا). ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، إلى قوله: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وِرْسُولِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. والأصل (وبي) وعدل عنه لنكتتين: إحداهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصية لها، والأخرى: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة والخصائص المتلوة.

ومثاله من الخطاب إلى التكلم لم يقع في القرآن، ومثل له بعضهم بقوله: ﴿فَأَفْضُ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، ثم قال: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه: ٧٣]. وهذا المثال لا يصح، لأن شرط الالتفات أن يكون المراد به واحداً.

ومثاله من الخطاب إلى الغيبة: ﴿حَقِّ إِذَا كُنْتُ فِي أَلْفِكَ وَجَرِينَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]. والأصل (بكم). ونكتة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم: التعجب من كفرهم وفعلهم، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة.

وقيل: لأن الخطاب أولاً كان مع الناس مؤمنهم وكافرهم، بدليل: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]. فلو كان (وجرين بكم) للزم الذم للجميع، فالتفت عن الأول للإشارة إلى اختصاصه بهؤلاء الذين شأنهم ما ذكره عنهم في آخر الآية، عدولاً من الخطاب العام إلى الخاص.

قلت: ورأيت عن بعض السلف في توجيهه عكس ذلك؛ وهو: أن الخطاب أوله خاصٌّ وآخره عامٌ. فأخرج ابنُ أبي حاتم^(١) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرًا﴾ [يونس: ٢٢]. قال: ذكر الحديث عنهم، ثم حدّث عن غيرهم، ولم يقل: (وجرين بكم)؛ لأنه قصد أن يجمعهم وغيرهم، وجرين بهؤلاء وغيرهم من الخلق. هذا عبارته. فله درُّ السلف ما كان أوقفهم على المعاني اللطيفة التي يدأب المتأخرون فيها زماناً طويلاً، ويثنون فيها أعمارهم، ثم غايتهم أن يحوموا حول الحمى.

ومما ذكر في توجيهه أيضاً: أنهم وقت الركوب حضروا، لأنهم خافوا الهلاك وغلبة الرياح، فخطبهم خطاب الحاضرين، ثم لما جرت الرياح بما تشتهي السفن، وأمنوا الهلاك، لم يبق حضورهم كما كان، على عادة الإنسان أنه إذا أمن، غاب قلبه عن ربه، فلما غابوا ذكرهم الله بصيغة الغيبة. وهذه إشارة صوفية.

ومن أمثله أيضاً: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ دُكُونٍ تَرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْجِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]. ﴿وَكُرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرُ وَالْفُسُوقُ وَالْبَعْثَانُ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [التافات عليهم]، والأصل (عليكم)، ثم قال: ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠، ٧١]، فكرر الالتفات. ومثاله من الغيبة إلى التكلم: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِجُ سَحَابًا مَسْكُونَةً﴾ [فاطر: ٩]. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا﴾ [فصلت: ١٢]. ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ثم التفت ثانياً إلى الغيبة فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وعلى قراءة الحسن (ليربه)^(٢) بالغيبة، يكون التفتاً ثانياً من ﴿بَرَكْنَا﴾، وفي ﴿آيَاتِنَا﴾ التفتات ثالث، وفي: ﴿إِنَّهُ﴾ التفتات رابع. قال الزمخشري^(٣): وفائدته في هذه الآيات وأمثالها التنبيه على التخصيص بالقدرة، وأنه لا يدخل تحت قدرة أحد.

ومثاله من الغيبة إلى الخطاب: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩]. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦]. ﴿وَسَقَنَّهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]. ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

ومن محاسنه ما وقع في سورة الفاتحة: فإنَّ العبد إذا ذكر الله تعالى وحده، ثم ذكر صفاته التي كل صفة منها تبعث على شدة الإقبال، وآخرها: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ المفيد أنه مالك الأمر كله في يوم الجزاء، يجد من نفسه حاملاً لا يقدر على دفعه على خطاب من هذه صفاته: بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات.

(١) في «تفسيره» ١٩٣٨/٦ (١٠٢٩٥)، يونس: ٢٢.

(٢) وهي قراءة شاذة.

(٣) في «كشافه» ٤٣٧/٢، الإسراء: ١.

وقيل: إنما اختير لفظ الغيبة للحمد، وللعبادة الخطاب، للإشارة إلى أن الحمد دون العبادة في الرتبة؛ لأنك تحمد نظيرك ولا تعبه، فاستعمل لفظ (الحمد) مع الغيبة، ولفظ (العبادة) مع الخطاب، لينسب إلى العظيم حال المخاطبة والمواجهة ما هو أعلى رتبة، وذلك على طريقة التأدب.

وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مصرحاً بذكر المنعم وإسناد الإنعام إليه لفظاً، ولم يقل: (صراط المنعم عليهم) فلماً صار إلى ذكر الغضب زوى عنه لفظه، فلم ينسبه إليه لفظاً، وجاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فلم يقل: (غير الذين غضبت عليهم) تفادياً عن نسبة الغضب إليه في اللفظ حال المواجهة.

وقيل: لأنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه الصفات العظيمة - من كونه رباً للعالمين ورحماناً ورحيماً ومالكاً ليوم الدين - تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بأن يكون معبوداً دون غيره، مستعاناً به، فخطوب بذلك لتمييزه بالصفات المذكورة تعظيماً لشأنه، حتى كأنه قيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا غيرك.

قيل: ومن لطائفه التنبيه على أن مبتدأ الخلق الغيبة منهم عنه سبحانه وتعالى، وقصورهم عن محاضرتهم ومخاطبته، وقيام حجاب العظمة عليهم، فإذا عرفوه بما هو له، وتوسلوا للقرب بالثناء عليه، وأقروا بالمحامد له وتعبدوا له بما يليق بهم، تأهلوا للمخاطبة ومناجاة فقالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.



تنبيهات

الأول: شرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، وإلا يلزم عليه أن يكون في (أنت صديقي) التفات.

الثاني: شرطه أيضاً أن يكون في جملتين؛ صرح به صاحب «الكشاف» وغيره، وإلا يلزم عليه أن يكون نوعاً غريباً.

الثالث: ذكر التَّنَوُّحِيَّ في «الأقصى القريب» وابن الأثير وغيرهما: نوعاً غريباً من الالتفات، وهو بناء الفعل للمفعول بعد خطاب فاعله أو تكلمه، كقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بعد ﴿أَنْعَمْتَ﴾. فإنَّ المعنى: (غير الذين غضبت عليهم) وتوقف فيه صاحب «عروس الأفراح».

الرابع: قال ابن أبي الإصبع: جاء في القرآن من الالتفات قسم غريب جداً، لم أظفر في الشعر بمثاله، وهو: أن يقدم المتكلم في كلامه مذكورين مرتبين، ثم يخبر عن الأول منهما، وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثاني، ثم يعود إلى الإخبار عن الأول. كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [٦، ٧]. انصرف عن الإخبار عن الإنسان إلى الإخبار عن ربه تعالى، ثم قال منصرفاً عن الإخبار عن ربه تعالى إلى الإخبار عن الإنسان: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]. قال: وهذا يحسن أن يُسمى التفات الضمائر.

الخامس: يقرب من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد أو الاثنين أو الجمع لخطاب الآخر، ذكره التنوخي وابن الأثير. وهو ستة أقسام أيضاً:
مثاله من الواحد إلى الاثنين: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَعَدَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَكُنَّا لَكُمْ الْكٰكِرِيَّاءَ فِي الْاَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨].

وإلى الجمع: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُهُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١].
ومن الاثنين إلى الواحد: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَمُوسَى﴾ [طه: ٤٩]. ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى﴾ [طه: ١١٧].
وإلى الجمع: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَنبَأْنَا أَن نَّبُوءًا لِّقَوْمِكَأَ بِيصْرَ يُؤْتَا وَأَجْعَلُوا يُؤْنِكُمْ قِسْلَةً﴾ [يونس: ٨٧].
ومن الجمع إلى الواحد: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].
وإلى الاثنين: ﴿يَمْعَشَرِ اللَّيْلِ وَالْأَيْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فِي أَيِّ ءَالٍ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣، ٣٤].

السادس: ويقرب منه أيضاً الانتقال . . . من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى آخر.
مثاله من الماضي إلى المضارع: ﴿أَرْسَلْنَا الرِّيحَ فَتَئِيْرُ﴾ [فاطر: ٩]. ﴿خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ [الحج: ٣١]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥].
وإلى الأمر: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوْهَكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٩]. ﴿وَأَحْلَلْتُ لَكُمْ الْاَنْعَامَ إِلَّا مَا يُسَلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا﴾ [الحج: ٣٠].
ومن المضارع إلى الماضي: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ﴾ [النمل: ٨٧]. ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَرَى الْاَرْضَ بَارِدَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ [الكهف: ٤٧].

وإلى الأمر: ﴿قَالَ إِنَّيْ أَشْهَدُ اللهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ﴾ [هود: ٥٤].
ومن الأمر إلى الماضي: ﴿وَأَخْبَدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرٰهِيْمَ مُصَلِّينَ وَعٰهَدْنَا﴾ [البقرة: ١٢٥].
وإلى المضارع: ﴿وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].
الاطراد: هو أن يذكر المتكلم أسماء آباء الممدوح مرتبةً على حكم ترتيبها في الولادة.
قال ابن أبي الإصبع: ومنه في القرآن قوله تعالى حكايةً عن يوسف: ﴿وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]. قال: وإنما لم يأت به على الترتيب المألوف؛ فإن العادة الابتداءً بالأب ثم الجد ثم الجد الأعلى، لأنه لم يرد هنا مجرد ذكر الآباء، وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التي أتبعها، فبدأ بصاحب الملة، ثم بمن أخذها عنه، أولاً فأولاً على الترتيب.

ومثله قول أولاد يعقوب: ﴿تَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

الانسجام: هو أن يكون الكلام - لخلوه من الانعقاد - منحدراً كتحدُّر الماء المنسجم. ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقةً. والقرآن كله كذلك.

قال أهل البدع: وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا فُضْد، لقوة انسجامه. ومن ذلك ما وقع في القرآن موزوناً:

فمنه من بحر الطويل: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].
 ومن المديد: ﴿وَأَصْبَحَ أَلْفَاكٌ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].
 ومن البسيط: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسْكُتَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].
 ومن الوافر: ﴿وَيُخْزِرُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].
 ومن الكامل: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].
 ومن الهزج: ﴿فَأَلْفَوْهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣].
 ومن الرجز: ﴿وَدَائِبُهُ عَنَيْمٌ ظِلَلْنَاهَا وَذُلَّتْ فُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].
 ومن الرمل: ﴿وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبا: ١٣].
 ومن السريع: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].
 ومن المنسرح: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢].
 ومن الخفيف: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].
 ومن المضارع: ﴿يَوْمَ النَّادِ يَوْمَ نُولَىٰ مُّذْرِبِينَ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].
 ومن المقتضب: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].
 ومن المعجث: ﴿نِعْمَ عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْعَقُورُ الرَّجِيذُ﴾ [الحجر: ٤٩].
 ومن المتقارب: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّتَ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

الإدماج: قال ابن أبي الإصبع: هو أن يدمج المتكلم غرضاً في غرض، أو بديعاً في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين أو أحد البديعين. كقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]. أدمجت المبالغة في المطابقة، لأن انفراده تعالى بالحمد في الآخرة - وهي الوقت الذي لا يُحمد فيه سواه - مبالغة في الوصف بالانفراد بالحمد، وهو - وإن خرج مخرج المبالغة في الظاهر - فالأمر فيه حقيقة في الباطن، فإنه رب الحمد، والمنفرد به في الدارين. انتهى.

قلت: والأولى أن يقال في هذه الآية: إنها من إدماج غرض في غرض؛ فإن الغرض منها تفرده تعالى بوصف الحمد، وأدمج فيه الإشارة إلى البعث والجزاء.

الافتنان: هو الإتيان في كلام بفتن مختلفين، كالجمع بين الفخر والتعزية في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. فإنه تعالى عزى جميع المخلوقات من الإنس والجن والملائكة وسائر أصناف ما هو قابل للحياة، وتمدح بالبقاء بعد فناء الموجودات في عشر لفظات، مع وصفه ذاته - بعد انفراده بالبقاء - بالجلال والإكرام سبحانه وتعالى!

ومنه: ﴿ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدَّرُ الْأَطْلَمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾ [مريم: ٧٢]، جمع فيها بين هناء وعزاء. الاقتدار: هو أن يبرز المتكلم المعنى الواحد في عدة صور، اقتداراً منه على نظم الكلام وتركيبه، وعلى صياغة قوالب المعاني والأغراض. فتارة: يأتي به في لفظ الاستعارة، وتارة في صورة الإرداف، وحيناً في مخرج الإيجاز، ومرة في قالب الحقيقة.

قال ابن أبي الإصيص: وعلى هذا أنت جميعُ قصص القرآن، فإنك ترى القصة الواحدة التي لا تختلف معانيها تأتي في صور مختلفة، وقوالب من الألفاظ متعدّدة، حتى لا تكاد تشتهه في موضعين منه، ولا بدّ أن تجد الفرق بين صورها ظاهراً.



ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى

الأول: أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً، بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله، رعايةً لحسن الجوار والمناسبة.

والثاني: أن تكون ألفاظ الكلام ملائمةً للمعنى المراد؛ فإن كان فخماً كانت ألفاظه فخمة، أو جزلاً فجزلةً، أو غريباً فغريبةً، أو متداولاً فمتداولةً، أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال فكذلك.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿تَاللّٰهِ تَفْتَوٰۤا۟ تَذَكَّرُ يُوَسِّفُ حَتّٰى تَكُوْنُ حَرَصًا﴾ [يوسف: ٨٥]. أتى بأغرب الألفاظ القسَم وهي (الناء) فإنها أقلّ استعمالاً، وأبعدُ من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو. وبأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار؛ فإنّ (تزال) أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً منها، وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو (الحرَص). فاقترضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظه بلفظة من جنسها في الغرابة، توخياً لحسن الجوار، ورعاية في ائتلاف المعاني بالألفاظ. ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتناسب في النظم. ولما أراد غير ذلك قال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩]. فأتى بجميع الألفاظ متداولة لا غرابة فيها.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا۟ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَمَتَّسِكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]. لما كان الركوب إلى الظالم - وهو الميل إليه والاعتماد عليه - دون مشاركته في الظلم، وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظلم، فأتى بلفظ (المسّ) الذي هو دون الإحراق والإصطلاء.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. أتى بلفظ (الاكتساب) المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها.

وكذا قوله: ﴿فَكَبِّبُوا۟ فِيهَا﴾ [الشعراء: ٩٤]، فهو أبلغ من (كَبِّبُوا) للإشارة إلى أنهم يُكَبَّبُونَ كَبًّا عنيفاً فظيماً.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ﴾ [فاطر: ٣٧]، فإنه أبلغ من (يصرخون) للإشارة إلى أنهم يصرخون صُراخاً منكراً خارجاً عن الحدّ المعتاد.

﴿أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ [القمر: ٤٢]، فإنه أبلغ من (قادر) للإشارة إلى زيادة التمكّن في القدرة، وأنه لا رادّ له ولا معقّب.

ومثل ذلك: ﴿وَأَصْطَرِحْ﴾ [مريم: ٦٥]، فإنه أبلغ من (اصبر).

﴿الزَّخْرَى﴾ فإنه أبلغ من ﴿الزَّحْرَى﴾؛ فإنه يشعر باللطف والرفق، كما أن (الرحمن) مُشعر بالفخامة والعظمة.

ومنه الفرق بين سَقَى وأسقى، فإن (سَقَى) لما لا كُلفَ معه في السُّقيا، ولهذا أورده تعالى في شراب الجنة، فقال: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]. و(أسقى) لما فيه كُلفٌ، ولهذا أورده في شراب الدنيا، فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ [الجن: ١٦]؛ لأن السقيا في الدنيا لا تخلو من الكُلفة أبداً.

الاستدراك والاستثناء: شرط كونهما من البديع أن يتضمنا ضرباً من المحاسن زائداً على ما يدلُّ عليه المعنى اللغوي.

مثال الاستدراك: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُوْمِنُونَ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، فإنه لو اقتصر على قوله: ﴿لَرُّؤُوسًا﴾ لكان منفرأ لهم؛ لأنهم ظنوا الإقرار بالشهادتين من غير اعتقاد إيماناً، فأوجبت البلاغة ذكر الاستدراك، ليُعلم أن الإيمان موافقة القلب للسان، وإن انفرد اللسان بذلك يسمّى إسلاماً، ولا يسمّى إيماناً. وزاد ذلك إيضاحاً بقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. فلماً تَضَمَّنَ الاستدراك إيضاح ما عليه ظاهر الكلام من الإشكال عُدَّ من المحاسن.

ومثال الاستثناء: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]، فإن الإخبار عن هذه المدة بهذه الصيغة يمهد عُذْر نوح في دعائه على قومه بدعوة أهلكتهم عن آخرهم؛ إذ لو قيل: (فليت فيهم تسعمئة وخمسين عاماً) لم يكن فيه من التهويل ما في الأول؛ لأن لفظ (الألف) في الأول أول ما يطرق السمع، فيشغل بها عن سماع بقية الكلام، وإذا جاء الاستثناء لم يبق له بعدما تقدّمه وقع يزيل ما حصل عنده من ذكر الألف.

الاقتصاص: ذكره ابن فارس، وهو: أن يكون كلامٌ في سورة مقتصاً من كلام في سورة أخرى أو في تلك السورة، كقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَتْهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. والآخرة دار ثواب لا عمل فيها. فهذا مقتصٌ من قوله: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا فَدَعِمَلِ الصَّالِحِينَ فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ أَلْحَقْنَا﴾ [طه: ٧٥].

ومنه: ﴿وَلَوْلَا رِزْقُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾ [الصفات: ٥٧] مأخوذ من قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] مقتصٌ من أربع آيات: لأن الأشهاد أربعة: الملائكة في قوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، والأنبياء في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وأمة محمد في قوله: ﴿لَنُكْرِبُوكُمْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والأعضاء في قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ﴾ [النور: ٢٤].

وقوله: ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾ [غافر: ٣٢]. قرئ محففاً ومشدداً، فالأول مأخوذ من قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، والثاني من قوله: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِنَ أَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤].

الإبدال: هو إقامة بعض الحروف مقام بعض. وجعل منه ابن فارس: ﴿فَأَنفَلَقَ﴾، أي: انفرق، ولهذا قال: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فالرءء واللام متعاقبتان.

وعن الخليل^(١) في قوله تعالى: ﴿فَبَاسُوا جَلَدَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]. إنه أريد (فحاسوا) فجاءت الجيم مقام الحاء. وقد قرئ بالحاء أيضاً.

وجعل منه الفارسي: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حَبَّ الْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢]، أي: الخيل.

وجعل منه أبو عبيدة: ﴿إِلَّا مُكَّاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، أي: تصددة.

تأكيد المدح بما يشبه الذم: قال ابن أبي الإصبع: هو في غاية العزة في القرآن^(٢). قال: ولم أجد منه إلا آية واحدة، وهي قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ...﴾ الآية [المائدة: ٥٩]؛ فإن الاستثناء - بعد الاستفهام الخارج مخرج التوبيخ على ما عابوا به المؤمنین من الإيمان - يؤهم أن ما يأتي بعده ممّا يوجب أن يُنقَمَ على فاعله ممّا يذمّ به، فلما أتى بعد الاستثناء ما يوجب مدح فاعله كان الكلام متضمناً تأكيد المدح بما يشبه الذم.

قلت: ونظيرها قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن ظاهر الاستثناء أن ما بعده حق يقتضي الإخراج، فلما كان صفة مدح يقتضي الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم.

وجعل منه التَّنَوُّخِي في «الأقصى القريب»: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا أَشْيٌ إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. استثنى ﴿سَلَمًا سَلَامًا﴾ الذي هو ضد اللغو والتأثير، فكان ذلك مؤكداً لانتفاء اللغو والتأثير. انتهى.

التفويت: هو إتيان المتكلم بمعانٍ شتى من المدح والوصف، وغير ذلك من الفنون، كل فن في جملة منفصلة عن أختها، مع تساوي الجمل في الزنة. وتكون في الجمل الطويلة والمتوسطة والقصيرة.

فمن الطويلة: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَهوَ يُحْيِيهِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨١].

ومن المتوسطة: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧].

قال ابن أبي الإصبع: ولم يأت المرّكب من القصيرة في القرآن.

التقسيم: هو استيفاء أقسام الشيء الموجودة، لا الممكنة عقلاً، نحو: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض (ت: ١٧٠هـ). «إنباه الرواة» ١/٣٤١، «وفيات الأعيان» ١/١٧٢.

(٢) العزة: القلة. «القاموس المحيط»: عزز.

الرَّبْفِ حَوْفًا وَطَمَعًا ﴿الرعد: ١٢﴾، إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار؛ ولا ثالث لهذين القسمين.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴿فاطر: ٣٢﴾، فإن العالم لا يخلو من هذه الأقسام الثلاثة: إمّا عاصٍ ظالمٌ لنفسه، وإمّا سابقٌ لمبادر للخيرات، وإمّا متوسطٌ بينهما مقتصدٌ فيها.

ونظيرها: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الشَّمَائِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَائِ ﴿٩﴾ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ﴿الواقعة: ٧ - ١٠﴾.

وكذا قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ آيَاتِنَا وَمَا حَلَفْنَا وَمَا يَبْكُ ذَلِكَ ﴿مریم: ٦٤﴾. استوفى أقسام الزمان، ولا رابع لها.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴿النور: ٤٥﴾. استوفى أقسام الخلق في المشي.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿آل عمران: ١٩١﴾. استوفى جميع هيات الذكور.

وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئْتَا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ بُرُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِئْتَا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿الشورى: ٤٩، ٥٠﴾. استوفى جميع أحوال المتزوجين، ولا خامس لها.

التدبيح: هو أن يذكر المتكلم ألواناً يقصد التورية بها والكناية.

قال ابن أبي الإصبع: كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيبٌ سُودٌ ﴿فاطر: ٢٧﴾.

قال: المراد بذلك - والله أعلم - الكناية عن المشتبه، والواضح من الطرق؛ لأن الجادة البيضاء هي الطريق التي كثر السلوك عليها جداً، وهي أوضح الطرق وأبينها. ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء؛ كأنها في الخفاء والالتباس ضد البيضاء في الظهور والوضوح. ولما كانت هذه الألوان الثلاثة في الظهور للعين طرفين وواسطة، فالطرف الأعلى في الظهور البياض، والطرف الأدنى في الخفاء السود، والأحمر بينهما، على وضع الألوان في التركيب، وكانت ألوان الجبال لا تخرج عن هذه الألوان الثلاثة، والهداية بكل علم نصب للهداية منقسمة هذه القسمة، أتت الآية الكريمة منقسمة كذلك، فحصل فيها التدبيح وصحة التقسيم.

التنكيح: هو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره، ممّا يسد مسدّه، لأجل نكتة في المذكور ترجح مجيئه على سواه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَيْنِ ﴿النجم: ٤٩﴾ خصّ الشعرى بالذكر دون غيرها من النجوم، وهو تعالى ربّ كل شيء؛ لأن العرب كان ظهر فيهم رجلٌ يُعرَفُ بابن

أبي كَبِشَّة^(١) عَبْدَ الشَّعْرِي، ودعا خلقاً إلى عبادتها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّمْعِيِّ﴾ التي ادَّعيت فيها الربوبية.

التجريد: هو أن يُنتزَع من أمرٍ ذي صفةٍ آخر مثله؛ مبالغةً في كمالها فيه.

نحو: (لي من فلان صديقٌ حميم). جَرَدَ من الرجل الصديق آخر مثله مَتَّصِفٌ بصفة الصداقة.

ونحو: (مررت بالرجل الكريم والنَّسَمَة المباركة). جَرَدُوا من الرَّجُل الكريم آخر مثله متصفاً بصفة

البركة، وعطفوه عليه، كأنه غيره، وهو هو.

ومن أمثله في القرآن: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخَالِدِ﴾ [فصلت: ٢٨]. ليس المعنى أن الجنة فيها دار خلد وغير دار خلد، بل هي نفسها دار الخلد؛ فكأنه جَرَدَ من الدار داراً. ذكره في «المحتسب»^(٢) وجعل منه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]. على أن المراد بالميت النطفة.

قال الزمخشري^(٣): وقرأ عبيد بن عمير: ﴿كَانَتْ وَرْدَةً كَالدَّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، بالرَّفْع، بمعنى حَصَلَتْ منها وردة، قال: وهو من التجريد. وقرئ أيضاً: (يَرِثُنِي وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) قال ابن جني: هذا هو التجريد، وذلك أنه يريد: (وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي مِنْهُ وَارِثٌ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) وهو الوارث نفسه، فكأنه جَرَدَ منه وارثاً.

التعديد: هو إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد. وأكثر ما يوجد في الصفات، كقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّكَ الْقُدُوسَ أَسَلَّمَ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وقوله: ﴿الْكَلْبِيُّونَ الْغَلْبِيُّونَ الْغَلْبِيُّونَ...﴾ الآية [التوبة: ١١٢].

وقوله: ﴿مُسْلِمَتٍ مُؤْمِنَةٍ...﴾ الآية [التحریم: ٥].

الترتيب: هو أن يورد أوصاف الموصوف على ترتيبها في الخلقة الطبيعية، ولا يُدخِلَ فيها وصفاً زائداً. ومثله عبد الباقي اليميني بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوُنُوا شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧]، وبقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا...﴾ الآية [الشمس: ١٤].

الترقي والتدلي: تقدماً في نوع التقديم والتأخير.

التضمن: يطلق على أشياء:

أحدها: إيقاع لفظ موقع غيره لتضمينه معناه. وهو نوعٌ من المجاز تقدم [الكلام] فيه.

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: أول من عبده أبو كبشة، أحد أجداد النبي ﷺ من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يُسمون النبي ﷺ ابن أبي كبشة. والصواب أن أبو كبشة كما قال محقق «البرهان» ٤٣٩/٣. تفسير القرطبي، سورة النجم: ٤٩.

(٢) «المحتسب» لابن حني ٣٨/٢، مريم: ٤.

(٣) في «كشافه» ٤٨/٤، سورة الرحمن: ٣٧، وفيه: وقرأ عمرو بن عبدي.

الثاني: حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم هو عبارة عنه. وهذا نوع من الإيجاز تقدّم أيضاً.

الثالث: تعلق ما بعد الفاصلة بها. وهذا مذكور في نوع الفواصل.

الرابع: إدراج كلام الغير في أثناء الكلام، لقصد تأكيد المعنى، أو ترتيب النظم. وهذا هو النوع

البدعي.

قال ابن أبي الإصبع: ولم أظفر في القرآن بشيء منه إلا في موضعين تضمنا فصلين من التوراة والإنجيل: قوله: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ . . .﴾ الآية [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ . . .﴾ الآية [الفتح: ٢٩].

ومثله ابن النقيب^(١) وغيره: بإيداع حكايات المخلوقين في القرآن، كقوله تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وعن المنافقين: ﴿أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الشُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]. ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ [البقرة: ١١٣]، ﴿وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ﴾ [البقرة: ١١٣].

قال: وكذلك ما أودع فيه من اللغات الأعجمية.

الجناس: هو تشابه اللفظين في اللفظ.

قال في «كنز البراعة»^(٢): وفائدته الميل إلى الإصغاء إليه، فإن مناسبة الألفاظ تُحدث ميلاً وإصغاءً إليها، ولأن اللفظ المشترك إذا حُمِلَ على معنى، ثم جاء والمراد به آخر، كان للنفس تشوقٌ إليه.

وأنواع الجناس كثيرة:

منها: التام، بأن يتفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]. وقيل: ولم يقع منه في القرآن سواه. واستنبط شيخ الإسلام ابن حجر موضعاً آخر، وهو: ﴿بِكَادُ سَنَا بَرَقِيهِ يَدَهُ بِالْأَبْصَرِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤].

وأنكر بعضهم كون الآية الأولى من الجناس، وقال: الساعة في الموضعين بمعنى واحد، والتجنيس أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى، ولا يكون أحدهما حقيقةً، والآخر مجازاً، بل يكونان حقيقتين، وزمان القيامة - وإن طال - لكنه عند الله في حكم الساعة الواحدة، فإطلاق الساعة على القيامة مجازاً، وعلى الآخرة حقيقةً، وبذلك يخرج الكلام عن التجنيس، كما لو قلت: ركبتُ حماراً ولقيتُ حماراً، تعني بليداً.

ومنها: المصحّف، ويسمى جناس الخط. بأن تختلف الحروف في النقط، كقوله: ﴿وَالَّذِي هُوَ

يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ [الشعراء: ٧٩، ٨٠].

(١) ابن النقيب: محمد بن سليمان، مفسر، من فقهاء الحنفية (ت: ٦٩٨هـ). «الفوائد البهية» ١٦٨.

(٢) «جوهر الكنز»، وهو تلخيص «كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة» لابن الأثير الحلبي (ت: ٧٣٧هـ). ص ٩١ الجناس.

ومنها: المحرّف بأن يقع الاختلاف في الحركات، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ﴾ ﴿٧١﴾ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ﴾ [الصفات: ٧٢، ٧٣].

وقد اجتمع التصحيف والتحريف في قوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ومنها: الناقص، بأن يختلف في عدد الحروف، سواء كان الحرف المزيد أو لا أو وسطاً أو آخراً، كقوله: ﴿وَأَلْفَلَّتْ أَلْسَانُ بِالسَّاقِ﴾ ﴿٦٩﴾ إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ أَلْسَانُ﴾ [القيامة: ٢٩، ٣٠]، ﴿تَمَّ كُلٌّ مِنْ كُلِّ النَّارِ﴾ [النحل: ٦٩].

ومنها: المذيّل؛ بأن يزيد أحدهما أكثر من حرف في الآخر أو الأوّل، وسمّى بعضهم الثاني بالمتوّج، كقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ﴾ [طه: ٩٧]، ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٨٦]، ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ﴾ [العاديات: ١١]، ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٤٣].

ومنها: المضارع، وهو أن يختلفا بحرف مقارب في المخرج، سواء كان في الأول أو الوسط أو الآخر، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].

ومنها: اللّاحق، بأن يختلفا بحرف غير مقارب فيه كذلك، كقوله: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ هُمْزٍ لَمْرُزٍ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿وَأِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ﴿٧﴾ وَأِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٧، ٨]، ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ﴾ [النساء: ٨٣].

ومنها: المرفق، وهو ما ترّكب من كلمة وبعض أخرى، كقوله: ﴿جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩].

ومنها: اللّفظي، بأن يختلفا بحرف مناسب للآخر مناسبة لفظية كالضاد والطاء، كقوله: ﴿وَبُحُورُهُ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

ومنها: تجنيس القلب، بأن يختلفا في ترتيب الحروف، نحو: ﴿فَرَّقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤].

ومنها: تجنيس الاشتقاق، بأن يجتمعا في أصل الاشتقاق، ويسمّى المقتضب، نحو: ﴿فَرَّجَ وَرَحَّانٌ﴾ [الواقعة: ٨٩]، ﴿فَأَقْرَهُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ أَلْقِيهِ﴾ [الروم: ٤٣]، ﴿وَجَهَّتْ وَجْهِي﴾ [الأنعام: ٧٩].

ومنها: تجنيس الإطلاق، بأن يجتمعا في المشابهة فقط، كقوله: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ﴾ [الرحمن: ٥٤]. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْفَالِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]. ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى﴾ [المائدة: ٣١]. ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ﴾ [يونس: ١٠٧]. ﴿أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ﴾ [التوبة: ٣٨]. ﴿وَإِذَا أَلْمَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ إلى قوله: ﴿فَدُو دُعَايَ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

تنبيه: لكون الجناس من المحاسن اللفظية لا المعنوية تُرك عند قوّة المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]. قيل: ما الحكمة في كونه لم يقل: (وما أنت بمصدّق)، فإنه يؤدي معناه مع رعاية التجنيس؟

وأجيب: بأن في ﴿يُؤْمِنُ لَنَا﴾ من المعنى ما ليس في (مصدّق)؛ لأن معنى قولك: (فلان مصدّق لي) قال لي: صدقت، وأمّا (مؤمن) فمعناه مع التصديق إعطاء الأمان، ومقصودهم التصديق وزيادة، وهو طلب الأمان، فلذلك عبّر به.

وقد زلَّ بعض الأدياء، فقال في قوله: ﴿أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]: لو قال: (وتدعون) لكان فيه مراعاة للتجنيس.

وأجاب الإمام فخر الدين: بأن فصاحة القرآن ليست لرعاية هذه التكيلفات، بل لأجل قوَّة المعاني وجَزَالَةِ الألفاظ.

وأجاب غيره: بأن مراعاة المعاني أولى من مراعاة الألفاظ، ولو قال: ﴿أَدْعُونَ﴾ (وتدعون) لوقع الالتباس على القارئ؛ فيجعلها بمعنى واحد تصحيفاً. وهذا الجواب غير ناضج.

وأجاب ابن الزمِّلَكَاني: بأن التجنيس تحسين، وإنما يُستعملُ في مقام الوعد والإحسان، لا في مقام التهويل.

وأجاب الخوَّيُّي: بأن (تدع) أخص من (تذر)؛ لأنه بمعنى ترك الشيء مع اعتناؤه، بشهادة الاشتقاق، نحو الإيداع، فإنه عبارة عن ترك الوديعة مع الاعتناء بحالها؛ ولهذا يختار لها مَنْ هو مؤتمنٌ عليها. ومن ذلك الدعة بمعنى الراحة. وأما (تذر) فمعناه الترك مطلقاً، أو الترك مع الإعراض والرفض الكلي.

قال الراغب^(١): يقال: فلان يذرُ الشيء، أي: يقذفه لقلَّة الاعتداد به، ومنه الوذرة - قطعة من اللحم - لقلَّة الاعتداد به، ولا شك أن السَّيَاقَ إنما يناسب هذا دون الأول؛ فأريد هنا تبشيع حالهم في الإعراض عن ربِّهم، وأنهم بلغوا الغاية في الإعراض. انتهى.

الجمع: هو أن يجمع بين شيئين أو أشياء متعددة في حكم، كقوله تعالى: ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. جمع المال والبنون في الزينة.

وكذلك قوله: ﴿السَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥، ٦].

الجمع والتفريق: هو أن تدخل شيئين في معنى، وتفرِّق بين جهتي الإدخال. وجعل منه الطَّيِّبِي قوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ الآية [الزمر: ٤٢]. جمع النفسين في حكم التوفِّي، ثم فرَّق بين جهتي التوفِّي بالحكم بالإمساك والإرسال، أي: الله يتوفَّى الأنفس التي تُقبَضُ والتي لم تُقبَضُ، فيمسك الأولى ويرسل الأخرى.

الجمع والتقسيم: وهو جمع متعدّد تحت حكم، ثم تقسيمه؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

الجمع مع التفريق والتقسيم: كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِذَنبِهِ...﴾ الآيات [هود: ١٠٥ - ١٠٨].

فالجمع في قوله: ﴿لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِذَنبِهِ﴾ لأنها متعددة معنى؛ إذ النكرة في سياق النفي تُعم، والتفريق في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ سَابِقٌ وَالْمُسَبِّحِينَ﴾، والتقسيم في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ سَقُوا﴾. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾.

(١) في «مفرداته» مادة: وَذَرَ.

جمع المؤلف والمختلف: هو أن يريد التسوية بين ممدوحين، فيأتي بمعانٍ مؤتلفة في مدحهما، ويروم بعد ذلك ترجيح أحدهما على الآخر، بزيادة فضل لا يُنقص الآخر، فيأتي لأجل ذلك بمعانٍ تخالف معنى التسوية، كقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ...﴾ الآية [الأنبياء: ١٧٨]. سوى في الحكم والعلم، وزاد فضل سليمان بالفهم.

حسن النسق: هو أن يأتي المتكلم بكلماتٍ متتالياتٍ معطوفات، متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسنناً، بحيث إذا أُفردت كلُّ جملةٍ منه قامت بنفسها، واستقلَّ معناها بلفظها. ومنه قوله تعالى: ﴿رَقِيبٌ يَتَأَرَّضُ أَبْلَى مَاءٍ...﴾ الآية [هود: ٤٤]. فَإِنَّ جُمْلَهُ مَعُطُوفٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بَوَاوِ النَّسَقِ عَلَى التَّرْتِيبِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْبَلَاغَةُ: من الابتداء بالأهم الذي هو انحسار الماء عن الأرض، المتوقع عليه غاية مطلوب أهل السفينة من الإطلاق من سجنها، ثم انقطاع مادة السماء المتوقع عليه تمام ذلك من دفع أذاه بعد الخروج، ومنه اختلاف ما كان بالأرض، ثم الإخبار بذهاب الماء بعد انقطاع المادتين الذي هو متأخر عنه قطعاً، ثم بقضاء الأمر الذي هو هلاك مَنْ قُدِّرَ هلاكه، ونجاة مَنْ سبق نجاته، وأخبر عمَّا قبله؛ لأنَّ علم ذلك لأهل السفينة بعد خروجهم منها، وخروجهم موقوف على ما تقدَّم. ثم أخبر باستواء السفينة واستقرارها المفيد ذهاب الخوف وحصول الأمن من الاضطراب، ثم ختم بالدعاء على الظالمين لإفادة أن العرق وإن عمَّ الأرض، فلم يشمل إلا من استحقَّ العذاب لظلمه.

عتاب المرء نفسه: منه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي...﴾ الآيات [الفرقان: ٢٧].

وقوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي حُبِّ اللَّهِ...﴾ الآيات [الزمر: ٥٦].

العكس: هو أن يوتى بكلامٍ يقدِّم فيه جزءٌ ويؤخَّر آخر، ثم يقدِّم المؤخر، ويؤخَّر المقدم، كقوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]. ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]. ﴿وَمَنْ يُخْرِجِ الْغَيَّ مِنَ الْأَمْنِ وَيُخْرِجِ الْأَمْنِ مِنَ الْغَيِّ﴾ [يونس: ٣١]. ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ﴿لَا هُنَّ حُلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لهنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

وقد سُئل عن الحكمة في عكس هذا اللفظ، فأجاب ابن المنير: بأنَّ فائدته الإشارةُ إلى أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة.

وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب: الحقُّ أنَّ كل واحد من فعل المؤمنة والكافر منفيٌّ عنه الحِلُّ، أما فعل المؤمنة فيحرم؛ لأنها مخاطبة، وأما فعل الكافر فنفي عن الحِلِّ باعتبار أن هذا الوطء مشتملٌ على المفسدة، فليس الكفار مورد الخطاب، بل الأئمة ومن قام مقامهم مخاطبون بمنع ذلك؛ لأنَّ الشرع أمر بإخلاء الوجود من المفسد، فاتَّضح أنَّ المؤمنة نفي عنها الحِلُّ باعتبار، والكافر نفي عنه الحِلُّ باعتبار.

قال ابن أبي الإصبع: ومن غريب أسلوب هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِذًا﴾ ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴿النساء: ١٢٤، ١٢٥﴾، فإنَّ نظم الآية الثانية عكس نظم الأولى، لتقديم العمل في الأولى على الإيمان، وتأخيرها في الثانية عن الإسلام.

ومنه نوع يسمى القلب والمقلوب المستوي، وما لا يستحيل بالانعكاس، وهو أن تُقرأ الكلمة من آخرها إلى أولها، كما تُقرأ من أولها إلى آخرها، كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، ﴿وَرَبِّكَ فَكَّرٍ﴾ [المدثر: ٣]، ولا ثالث لهما في القرآن.

العنوان: قال ابن أبي الإصبع^(١): هو أن يأخذ المتكلم في غرض، فيأتي لقصده تكميله وتأكيده بأمثلة في ألفاظ تكون عنواناً لأخبارٍ متقدمة، وخصص سالفه.

ومنه نوع عظيم جداً، وهو: عنوان العلوم، بأن يذكر في الكلام ألفاظاً تكون مفاتيح لعلوم ومداخل لها.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءآيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا . . .﴾ الآية [الأعراف: ١٧٥]، فإنه عنوان قصة بلعام.

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تَلْحُظٍ﴾ الآية [المرسلات: ٣٠]. فيها عنوان علم الهندسة، فإن الشكل المثلث أول الأشكال، وإذا نُصب في الشمس على أي ضلع من أضلاعه، لا يكون له ظلٌّ، لتحديد رؤوس زواياه؛ فأمر الله تعالى أهل جهنم بالانطلاق إلى ظلِّ هذا الشكل تهكماً بهم.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . .﴾ الآيات [الأنعام: ٧٥]. فيها عنوان علم الكلام، وعلم الجدل، وعلم الهيئة.

الفرائد: هو مختصٌ بالفصاحة دون البلاغة؛ لأنه الإتيان بلفظةٍ تنزل منزلة الفريدة من العقد - وهي الجوهرة التي لا نظير لها - تدلُّ على عظم فصاحة هذا الكلام، وقوة عارضته، وجزالة منطقته، وأصالته عربيته، بحيث لو أسقطت من الكلام عزّت على الفصحاء [غرايتها].

ومنه لفظ: ﴿حَصَصَ﴾ في قوله: ﴿أَفَنَ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]. و﴿أَرْفُثُ﴾ في قوله: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةٌ أَلْوِيَامٍ أَرَفُثٌ إِلَىٰ نَسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ولفظه ﴿فُرُجٌ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣].

و﴿حَابِئَةَ الْأَعْيُنِ﴾ في قوله: ﴿يَعْلَمُ حَابِئَةَ الْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩].

وألفاظ قوله: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَصَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، وقوله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

القسم: هو أن يريد المتكلم الحلف على شيء، فيحلف بما يكون فيه فخرٌ له، أو تعظيمٌ لشأنه، أو تنويهٌ لقدره، أو ذمٌ لغيره، أو جارياً مجرى العزل والترقق، أو خارجاً مخرج الموعظة والزهد، كقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]؛ أقسم سبحانه وتعالى بقسمٍ يوجب الفخر لتضمّنه التمدّح بأعظم قدرة، وأجلّ عظمة.

(١) في «بديع القرآن» ص ٢٥٧ باب العنوان.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]. أقسم سبحانه وتعالى بحياة نبيه ﷺ تعظيماً لشأنه، وتنويهاً بقدره. وسيأتي في نوع الأقسام أشياء تتعلق بذلك.

اللف والنشر: هو أن يذكر شيئاً أو أشياء، إمّا تفصيلاً بالنص على كل واحد، أو إجمالاً بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدّد، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم، ويفوّض إلى عقل السامع ردّ كل واحد إلى ما يليق به.

فالإجماليّ: كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا اليهود، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا النصارى؛ وإمّا سوخ الإجمال في اللف ثبوت العناد بين اليهود والنصارى، فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الفريق الآخر الجنة، فوثق بالعقل في أنه يردّ كل قول إلى فريقه لأمن اللبس، وقائل ذلك يهود المدينة ونصارى نجران.

قلت: وقد يكون الإجمال في النشر لا في اللف؛ بأن يؤتى بمتعدّد، ثم بلفظ يشتمل على متعدّد يصلح لهما، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] على قول أبي عبيدة: إن الخيط الأسود أريد به الفجر الكاذب لا الليل، وقد بينته في «أسرار التنزيل» والتفصيلي قسماً:

أحدهما: أن يكون على ترتيب اللف، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]، فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء راجع إلى النهار. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، فاللوم راجع إلى البخل، و«محسوراً» راجع إلى الإسراف، لأن معناه: منقطعاً لا شيء عندك. وقوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا . . .﴾ الآيات، فإن قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾. و﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ فإن المراد السائل عن العلم، كما فسره مجاهد وغيره. و﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ١١]. رأيت هذا المثال في شرح «الوسيط» للنووي، المسمّى بـ «التنقيح».

والثاني: أن يكون على عكس ترتيبه، كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ . . .﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وجعل منه جماعة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. قالوا: ﴿مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ﴾: قول الذين آمنوا، ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾: قول الرسول.

وذكر الزمخشري قسماً آخر؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]. قال: هذا من باب اللف، وتقديره: (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ بِاللَّيْلِ

والتَّهَارِ إِلَّا أَنَّهُ فَصَلَ بَيْنَ ﴿مَنَامِكُمْ﴾ و﴿وَأَيْغَاؤِكُمْ﴾ بالليل والنهار؛ لأنهما زمانان، والزمان والواقع فيه كشيء واحد، مع إقامة اللف على الاتحاد.

المشكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا.

فالأول كقوله تعالى: ﴿تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. و﴿مَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فإن إطلاق النفس والمكر في جانب الباري تعالى إنما هو لمشكلة ما معه.

وكذا قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة. ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿الْيَوْمَ نَسْأَلُكَ كَمَا نَسِيتُ﴾ [الجاثية: ٣٤]، ﴿يَسْتَحْرُونَ مِنْهُمْ سِحْرَ اللَّهِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩]، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

ومثال التقديري: قوله تعالى: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٨]، أي: تطهير الله؛ لأن الإيمان يطهر النفوس، والأصل فيه: أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: إنه تطهير لهم، فعبر عن الإيمان (بصبغة الله) للمشكلة بهذه القرينة.

المزوجة: أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء، أو ما جرى مجراهما. كقوله^(١):

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِي فَلَجَّ بِئِي السُّهُوِي أَصَاخَتْ إِلَى الْوَاشِي فَلَجَّ بِهَا الْهَجْرِي

[بحر الطويل]

ومنه في القرآن: ﴿آتَيْنَهُمُ آيَاتِنَا فَأَسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

المبالغة: أن يذكر المتكلم وصفاً، فيزيد فيه حتى يكون أبلغ في المعنى الذي قصده. وهي ضربان: مبالغة بالوصف: بأن يخرج إلى حد الاستحالة، ومنه: ﴿يَكَادُ زَيْبًا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]. ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

ومبالغة بالصيغة: وصيغ المبالغة: (فعلان) كالرحمن، و(فعليل) كالرحيم، و(فَعَال) كالتَّوَاب والغفار والقهار، و(فَعُول) كغفور وشكور وودود، و(فَعَل) كحذير وأشير وفريح. و(فَعَال) بالتخفيف، كعُجَاب، وبالتشديد ككُبَّار، و(فُعَل) ككَلْبَد وكُبَّر، و(فُعَلِي) كالعُلْيَا والحسنى وشورى والسوءى.

فائدة: الأكثر على أن (فَعْلَان) أبلغ من (فَعِيل). ومن ثم قيل: الرحمن أبلغ من الرحيم، ونصره السهيلي بأنه ورد على صيغة التثنية، والتثنية تضعيف، فكأن البناء تضاعفت فيه الصفة.

وذهب ابن الأنباري إلى أن الرحيم أبلغ من الرحمن، ورجحه ابن عسكر بتقديم ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه، وبأنه جاء على صيغة الجمع كعبيد، وهو أبلغ من صيغة التثنية.

(١) هو البحرى من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان، والبيت في «ديوانه» ٨٤٣/٢، والبحرى: الوليد بن عبيد، شاعر كبير (ت: ٢٨٤هـ). «وفيات الأعيان» ١٧٥/٢.

وذهب قُطرب إلى أنَّهما سواء.

فائدة: ذكر البرهان الرشيدى: أن صفات الله التي على صيغة المبالغة كلها مجاز، لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها؛ لأن المبالغة أن تثبت للشيء أكثر ممَّا له، وصفاته تعالى متناهية في الكمال لا يمكن المبالغة فيها. وأيضاً: فالمبالغة تكون في صفات تقبل الزيادة والنقصان، وصفات الله منزَّهة عن ذلك. واستحسنه الشيخ تقي الدين السبكي.

وقال الزركشي في «البرهان»: التحقيق أن صيغ المبالغة قسمان:

أحدهما: ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل.

والثاني: بحسب تعدد المفعولات، ولا شك أن تعدُّدها لا يوجب للفعل زيادة؛ إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين، وعلى هذا القسم تنزل صفاته تعالى ويرتفع الإشكال؛ ولهذا قال بعضهم في (حكيم): معنى المبالغة فيه تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع.

وقال في «الكشاف»: المبالغة في (التَّوَاب) للدلالة على كثرة مَنْ يتوب عليه من عباده، أو لأنه بليغ في قبول التوبة، نُزِل صاحبها منزلة من لم يذنب قط، لسعة كرمه.

وقد أورد بعض الفضلاء سؤالاً على قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وهو أن (قديراً) من صيغ المبالغة، فيستلزم الزيادة على معنى (قادر) والزيادة على معنى (قادر) محال؛ إذ الإيجاد من واحد لا يمكن فيه التفاضل باعتبار كلِّ فرد.

وأجيب: بأنَّ المبالغة لما تعدَّر حملها على كلِّ فرد وجب صرفها إلى مجموع الأفراد التي دلَّ السياق عليها، فهي بالنسبة إلى كثرة المتعلِّق لا الوصف.

المطابقة: وتسمَّى الطباق: الجمع بين متضادين في الجملة.

وهو قسمان: حقيقي ومجازي، والثاني يسمَّى التكافؤ، وكلٌّ منهما إما لفظي أو معنوي، وإمَّا طباق إيجاب أو سلب.

ومن أمثلة ذلك: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَبَيْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]. ﴿وَأَنْتَ هُوَ أَصْحَكَ وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣، ٤٤]. ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أُنْفُسًا وَّهُمْ رُفُودٌ﴾ [الكهف: ١٨].

ومن أمثلة المجازي: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيْسًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أي: ضالًّا فهديناه.

ومن أمثلة طباق السلب: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومن أمثلة المعنوي: ﴿إِن أَسْرُهُ إِلَّا تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمَنَا إِيَّاكَ لِمَسْلُونٌ﴾ [يس: ١٥، ١٦]. معناه:

(ربنا يعلم إنا لصادقون).

﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]. قال أبو علي الفارسي: لما كان البناء رفعاً

للمبني قوبل بالفراش الذي هو على خلاف البناء.

ومنه نوع يسمّى الطباق الخفيّ، كقوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوا نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، لأن الغرق من صفات الماء، فكأنه جمع بين الماء والنار، قال ابن مُنْقِذ^(١). وهي أخفى مطابقة في القرآن. وقال ابن المُعْتَز^(٢): من أملح الطباق وأخفاه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، لأن معنى القصاص القتل، فصار القتل سبب الحياة.

ومنه نوع يسمّى: ترصيع الكلام، وهو اقتران الشيء بما يجتمع معه في قدر مشترك، كقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَقْرَىٰ﴾ ﴿١٧٩﴾ وَأَنْتَ لَا تَنْظَمُونَ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]. أتى بالجوع مع العري، وبابه أن يكون مع الظمأ. وبالضحى مع الظمأ، وبابه أن يكون مع العري. لكنّ الجوع والعري اشتركا في الخلوّ، فالجوع خلوّ الباطن من الطعام، والعري خلوّ الظاهر من اللباس. والظمأ والضحى اشتركا في الاحتراق، فالظمأ: احتراق الباطن من العطش، والضحى: احتراق الظاهر من حرّ الشمس. ومنه نوع يسمّى: المقابلة، وهي: أن يذكر لفظان فأكثر، ثم أضدادها على الترتيب. قال ابن أبي الإصبع: والفرق بين الطباق والمقابلة من وجهين:

أحدهما: أن الطباق لا يكون إلا من ضدّين فقط، والمقابلة لا تكون إلا بما زاد من الأربعة إلى العشرة. والثاني: أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وبغيرها.

قال السكاكبي: ومن خواصّ المقابلة أنّه إذا شُرط في الأول أمر، شُرط في الثاني ضده، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾... ﴿الآيتين [الليل: ٥]. قابل بين الإعطاء والبخل، والاتقاء والاستغناء، والتصديق والتكذيب، واليسرى والعسرى. ولما جعل التيسير في الأول مشتركا بين الإعطاء والاتقاء والتصديق، جعل ضده - وهو التعسير - مشتركا بين أضدادها.

وقال بعضهم: المقابلة إما لواحد بواحد، وذلك قليل جدا، كقوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أو اثنين باثنين كقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢].

أو ثلاثة بثلاثة، كقوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿وَأَنْشُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢].

أو أربعة بأربعة، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾... ﴿الآيتين [الليل: ٥].

أو خمسة بخمسة، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا...﴾ [البقرة: ٢٦]، قابل بين: ﴿بِعُوضَةٍ مَّا فَوْقَهَا﴾ وبين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ و﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وبين: ﴿يُصِلُّ﴾ و﴿يَهْدِي﴾، وبين: ﴿يَقْضُونَ﴾ و﴿مِثْلَهُ﴾، وبين: ﴿يَقْطَعُونَ﴾ و﴿أَنْ يُوصَلَ﴾.

(١) أسامة بن منقذ أبو المظفر، أمير، عالم (ت: ٥٨٤هـ). «وفيات الأعيان» ١/٦٣.

(٢) ابن المعتز: عبد الله بن محمد المعتز بالله، ولي الخلافة يوماً واحداً، ألف البديع وطبقات الشعراء (ت: ٢٩٦هـ).

أو ستة بستة، كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ الآية، ثم قال ﴿قُلْ أُوْنَيْتُكُمْ...﴾ الآية [آل عمران: ١٤، ١٥]؛ قابل: الجنات، والأنهار، والخلد، والأزواج، والتطهير، والرضوان، بإزاء: النساء، والبنين، والذهب، والفضة، والخيال المسومة والأنعام، والحراث.

وقسم آخرُ المقابلةَ إلى ثلاثة أنواع: نظريّ، ونقيضيّ، وخلافيّ.

مثال الأول: مقابلة السنّة بالنوم في الآية الأولى، فإنّهما جميعاً من باب الرقّاد المقابل باليقظة في آية: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]. وهذا مثال الثاني؛ فإنّهما نقيضان.

ومثال الثالث: مقابلة الشرّ بالرشد في قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فإنّهما خلافان لا نقيضان، فإن نقيض الشرّ الخير، والرشد الغيّ.

المواربة - براء مهملة وباء موحدّة - أن يقول المتكلّم قولاً يتضمّن ما ينكر عليه، فإذا حصل الإنكار استحضر بحذقه وجهاً من الوجوه يتخلّص به، إمّا بتحريف كلمة أو تصحيفها أو زيادة أو نقص.

قال ابن أبي الإصبع^(١): ومنه قوله تعالى حكاية عن أكبر أولاد يعقوب: ﴿أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فُقُولُوا يَتَأَبَانًا إِنَّكَ أَبْنُكَ سَرَقٌ﴾ [يوسف: ٨١].

فإنّه قرئ: (إن ابنك سرّق ولم يسرق)، فأتى بالكلام على الصحة: بإبدال ضمّة من فتحة، وتشديد الراء وكسرتها.

المراجعة: قال ابن أبي الإصبع^(٢): هي أن يحكي المتكلم مراجعةً في القول جرت بينه وبين محاور له، بأوجز عبارة وأعدل سبك، وأعذب ألفاظ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]. جمعت هذه القطعة - وهي بعض آية - ثلاث مراجعات فيها معاني الكلام: من الخبر والاستخبار، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، بالمنطوق والمفهوم.

قلت: أحسن من هذا أن يقول: جمعت الخبر والطلب، والإثبات والنفي، والتأكيد والحذف، والبشارة والندارة، والوعد والوعيد.

النزاهة: هي خلوص ألفاظ الهجاء من الفحش، حتى يكون كما قال أبو عمرو بن العلاء، وقد سئل عن أحسن الهجاء: هو الذي إذا أنشدته العذراء في خدرها لا يقبح عليها.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾. ثم قال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٤٨، ٥٠]. فإنّ ألفاظ ذم هؤلاء المخبر عنهم بهذا الخبر أتت منزّهة عمّا يقبح في الهجاء من الفحش، وسائر هجاء القرآن كذلك.

(١) في «بديع القرآن» ص ٩٥ المواربة.

(٢) في «بديع القرآن» ص ٣٠٠ باب المراجعة.

الإبداع: - بالباء الموحدة -: أن يشتمل الكلام على عدّة ضروب من البديع.
قال ابن أبي الإصبع^(١): ولم أر في الكلام مثل قوله تعالى: ﴿يَكَارِضُ أَبْلَىٰ مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤]،
فإن فيها عشرين ضرباً من البديع، وهي سبع عشرة لفظة؛ وذلك:
المناسبة التامة في ﴿أَبْلَىٰ﴾، و﴿أَقْلَىٰ﴾.
والاستعارة فيهما.
والطباق بين الأرض والسماء.
والمجاز في قوله تعالى: ﴿وَيَنْسَمَاءُ﴾، فإن الحقيقة: يا مطر السماء.
والإشارة في: ﴿وَعَيْضَ الْمَاءِ﴾، فإنه عبّر به عن معانٍ كثيرة، لأن الماء لا يغيض حتى يُقلع مطر
السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء، فينقص الحاصل على وجه الأرض من الماء.
والإرداف في: ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾.
والتمثيل في: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾.
والتعليل، فإن ﴿وَعَيْضَ الْمَاءِ﴾ علة الاستواء.
وصحة التقسيم، فإنه استوعب فيه أقسام الماء حالة نقصه؛ إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، والماء
النابع من الأرض، وعَيْضُ الماء الذي على ظهرها.
والاحتراس في الدعاء، لئلا يتوهم أن العرق لعمومه شَمَلٌ مَنْ لا يستحق الهلاك، فإن عدّله تعالى
يمنع أن يدعوا على غير مستحقّ.
وحسن النسق واتلاف اللفظ مع المعنى.
والإيجاز؛ فإنه تعالى قصّ القصة مستوعبة بأخصر عبارة.
والتسهم؛ لأنّ أول الآية يذلل على آخرها.
والتهديب؛ لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن، كلّ لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق
الفصاحة مع الخلوّ من البشاعة وعقادة التركيب.
وحسن البيان، من جهة أنّ السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه.
والتمكن؛ لأن الفاصلة مستقرّة في محلّها، مطمئنة في مكانها، غير قلقة ولا مستدعاة.
والانسجام.

هذا ما ذكره ابن أبي الإصبع^(٢).
قلت: فيها أيضاً الاعتراض.

(١) في «بديع القرآن» ص ٣٤٠ - ٣٤١، باب الإبداع.

(٢) في «بديع القرآن» ص ٣٤٠ - ٣٤٣.